"التطوع قيمة اجتماعية أصيلة راسخة في المجتمع العماني"

تقديم : الدكتور محسن بن ناصر السالمي
أستاذ مساعد بكلية التربية بجامعة السلطان قابوس

مقدمة:

المتتبع للتاريخ الإنساني يجد أن التطوع مرتبط بحياة الإنسان منذ أن أوجده الله تعالى على هذه البسيطة، فهو أمر ملازم لحياته في مجالاتها المختلفة، ويتحقق بأساليب متنوعة، وفي ظروف مختلفة، وهو متباين في درجات ظهوره بين شدة وفتور، ويحدث بشكل عفوي أو نظامي.

والتطوع تحركه دوافع متعددة؛ منها: الإنسانية (الفطرية)، والدينية، والاجتماعية، والمصلحة الذاتية، وقد قصد بهذا الترتيب بيان اتساع مجال التطوع وضيقه، فهو في تصوري يضيق كلما ضاق مصدر الدافع؛ وهذا يعني أن مجال التطوع من منطلق فطري هو أوسعها؛ إذ ليست هناك غاية من التطوع سوى تحقيق المصلحة للإنسان، وتقديم الخير له، وهذه الدوافع لا تحدها حواجز جغرافية، ولا ترتبط بدوافع شخصية، فهو تطوع عابر للقارات، متجاوز لموجهات المعتقدات والعادات، والحروب والخلافات، يشترك في تقديمه جميع البشر، كما ينتفع منه جميعهم، وهناك صور من الواقع المعيش تدل على ذلك، فكم من دولة أو شعب تقبل المساعدة –في ظروف صعبة ناتجة عن عوامل بيئية أو اقتصادية أو اجتماعية– من دولة أخرى أو شعب آخر بينهما خلاف أو نزاع.

ولا يقصد بالدوافع الدينية دين بعينه، وإنما كل المعتقدات والتصورات، سواء أكانت على حق أم على باطل، لذلك فإن هذه الدوافع قد توجه التطوع لتحقيق أغراض دينية معينة غير معلنة، فتستغل حاجة الناس، ومعاناتهم، فتقدم لهم الخدمات بغرض إغرائهم واستدراجهم لتحقيق مآرب معينة.

أما التطوع في الإسلام فليس له غاية إلا وجه الله تعالى، فالمسلم يتقرب إلى الله تعالى بصنوف الطاعات والنوافل، وهي أمور غير واجبة عليه، ولا هو ملزم بها، وإنما هي تدخل في نطاق المستحب، والمندوب، والنفل، يفعلها العبد بغية نيل مرضاة الله تعالى، وتحقيقا للغاية

العظمى من خلق الإنسان، وهي عبادة الله عز وجل، يقول سبحانه "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" (الذاريات: ٥٦).

وتتجلى مشروعية التطوع في الإسلام في كثير من الآيات الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، يقول الله تعالى: "لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا" (النساء:١١٤). بمعنى أنه لا خير في كثير من كلام الناس وأحاديثهم ومحاوراتهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس، وهذا كله عمل بدني (القاضي،٢٠١١) فنفع هذه الأمور متعد إلى الآخرين. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " كُلُّ سُلَامَى مِنْ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ" (البخاري، باب من أخذ بالركاب ونحوه، رقم الحديث:٢٧٦٧). ويستفاد من هذا الحديث الشريف أن صور التطوع كثيرة ومتعددة، فهو باب واسع سهل الولوج، كما يستفاد منه أن القيام بالأعمال التطوعية أمر متجدد ومستمر، وليس مرة واحدة في العمر فقط، والدليل على ذلك من الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: " كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ.."

والتطوع في ظل الإسلام يبدأ من الفرد لذاته (أي يعود نفعه إليه)، وقد حث الله تعالى المؤمنين على ذلك، ورغبهم فيه، فقال: "فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (البقرة:١٨٢). ولا شك أن مداومة العبد على التطوع بما يعود عليه نفعه يمثل دافعا له للتطوع بما يحقق الخير والمنفعة لغيره. وأول صور التطوع عند المؤمن نحو غيره تتمثل في التطوع إلى أقرب الناس إليه، وهما الوالدان، فمن البر بالوالدين خدمتهما، والقيام بمصالحهما في حياتهما، والدعاء لهما وأداء الواجبات عنهما حتى بعد مماتهما، ومن ذلك ما روي أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: "يا رسول الله إن فريضة الله على العباد في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يثبت على الراحلة ، أفأحج عنه؟ قال: " أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته عنه أكنت قاضية عنه؟ " قالت: نعم ، قال:" فذاك ذاك" (الربيع، باب الحج عمن يحج عنه، رقم الحديث،٣٩٢). فقضاء الدين عن الوالدين من مال الأولاد، وأداء ما وجب عليهما من

حقوق لله تعالى، ليس أمرا واجبا، وإنما هو مندوب إليه، يتطوع به المسلم عنهما، برا بهما بعد مماتهما، وطلبا لنيل الثواب من الله تعالى.
كما يتجلى التطوع في الحياة الزوجية، ومن ذلك التعاون القائم بينهما في تدبير شؤون الأسرة، وتحقيق مصالحها، والقيام بالواجبات المناطة بها، وهكذا تتنوع صور التطوع في الإسلام وتتدرج من القريب إلى البعيد، وتتوسع دائرته من الفرد إلى المجتمع، فالأمة، فالإنسانية.

لقد أشار القرآن الكريم إلى صور متعددة للتطوع الذي يعود نفعه إلى غيره، ومن ذلك ما قصه الله تعالى علينا في سورة القصص من قصة موسى عليه السلام مع ابنتي شعيب، حيث أقدم إلى مساعدتهما، لما تبيّن حالهما؛ فسقى لهما الغنم دون مقابل، راجيا بعمله هذا مرضاة الله تعالى. ومن ذلك أيضا تطوع ذي القرنين ببناء سد عظيم يمنع يأجوج ومأجوج من قتل الناس، والفساد في الأرض.

والتطوع في الإسلام لا يتأثر بكون الناس في حالة سلم أو حرب، أو وفاق أو خلاف، ويمكن أن نضرب لذلك مثلا من القرآن الكريم، ففي قصة موسى عليه السلام أيضا مع العبد الصالح –الواردة في سورة الكهف– يتجلى لنا أن عمل الخير لم يتوقف بالرغم من جفاء أهل القرية لهما، وامتناعهم عن تضييفهما، فقد أقام العبد الصالح جدار اليتيمين دون مقابل، مع أنه كان من الممكن أن يأخذ أجرا مقابل عمله، يقول الله تعالى: "فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا" الكهف:٧٧.

والتطوع المحمود في ظل الإسلام لا يقتصر على ما يقدم إلى الإنسان فحسب، وإنما يشمل الحيوان كذلك، ومن ذلك ما قصه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من قصة الرجل الصالح والكلب، فقد قال صلى الله عليه وسلم:" بينما رجل يمشي في الطريق فاشتد عليه العطش، فوجد بئراً، فنزل فيها، فشرب وخرج، فإذا بكلب يلهث، ويأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغني. فنزل البئر فملأ خفه بالماء، فأمسكه بفيه، فطلع، فسقى الكلب، فشكر الله له ذلك، وغفر له، فقالوا: يا رسول الله أإن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: في كل كبد رطبة أجر" (الربيع، ج١، رقم الحديث، ٧٢٨).

أما الدوافع الاجتماعية للتطوع فتتمثل في العادات والتقاليد والأعراف ونوع التربية السائدة في المجتمع، فعند العرب مثلا عرف بمسميات عدة، ومن ذلك: المروءة، والنجدة، والنخوة، والشهامة، والكرم، والعطاء، وحق الجوار، والتلاحم، والإغاثة، والنصرة ...). وفي كل صورة من هذه الصور نجد أن المتطوع يبذل جهده أو ماله، أو كليهما، من أجل تحقيق خدمات إلى الآخرين دون انتظار عائد مادي أو معنوي منهم، وإنما يحدث بدوافع العادات والتقاليد والأعراف التي تقوم عليها حياة الجماعة.

وقد يكون التطوع بدافع تحقيق مصالح شخصية تعود إلى ذات المتطوع، كنيل الشهرة، أو الحصول على منفعة معينة، أو الوصول إلى مبتغى معين، وهذا النوع من التطوع (حسب الظاهر) مذموم فاعله؛ فهو عمل ينتظر منه صاحبه عائدا ماديا أو معنويا لذاته، وليس تحقيق منفعة للآخرين.

سمات العمل التطوعي في المجتمع العماني:

يتميز العمل التطوعي في المجتمع العماني بخصائص إنسانية راقية، وبعادات وتقاليد وأعراف حميدة، صُقِلت ووجهت بتعاليم الإسلام الحنيف، ومن تلك السمات:

أ- **التعاون:** فالعماني كغيره من البشر اجتماعي بطبعه، متفاعل مع غيره، ومن صور التفاعل التعاون على الخير مع إخوانه في الإنسانية، وإخوانه في الدين، امتثالا لأمر الله تعالى: " وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ " (المائدة:٢). فتجلت صور التعاون في كثير من الأعمال التطوعية التي قدمها ويقدمها العمانيون أفرادا وجماعات ومؤسسات. فقد كان العمانيون يمارسون أشكال العمل التطوعي منذ القدم، من خلال القبيلة والعلاقات الأسرية البسيطة (المنتدى التربوي، ٢٠١١).

لقد أثبت العمانيون للعالم أجمع أنهم مجتمع متعاون متكافل، ففي الأنواء المناخية التي حصلت في عام ٢٠٠٧، هب العمانيون جميعا إلى تقديم العون والمساعدة للتقليل من الآثار

الناتجة عن تلك الأنواء، والتخفيف من معاناة إخوانهم الذين تضرروا بسببها، فصار عملهم ذلك مضرب مثل، وأنموذجا يحتذي به الآخرون، ومدعاة فخر للعمانيين، وصارت تلك اللحمة التعاونية التطوعية تتجدد كلما جد أمر، أو حل خطب، وهي تتطور في أساليبها، وتسمو في معانيها.

كما يتجلى تطوع العمانيين في تقديم المساعدات إلى الآخرين خارج نطاق الدولة، وخصوصا في وقت الأزمات والظروف الإنسانية القاهرة.

ب- حب الوطن: يتصف العماني بحبه لوطنه، وبذل الجهد وتقديم ما في الوسع من أجل رفعته وتطوره، فقد مارس العمانيون صورا من أعمال التطوع -عبر العصور المختلفة- بالبدن، والمال، والفكر، إيمانا منهم بأن بناء الوطن شراكة بين المواطن والدولة، فكانت لهم إسهامات جليلة وعظيمة لا تزال ثمارها وآثارها شاهدة للعيان.

ج- التكافل الاجتماعي: وهو قيمة أصيلة في المجتمع العماني، تجعل الفرد يشعر بمعاناة الآخرين وحاجتهم، فتسابق أهل الخير إلى التخفيف من معاناتهم، وتلبية حاجاتهم، وتعتبر الأوقاف -التي تشمل مجالات الحياة المختلفة في المجتمع (كالتعليم، والصحة، والمساجد، والمرافق العامة)- صورة من صور التكافل الاجتماعي بالمال(التطوع بالمال)، هذا إلى جانب التطوع بالبدن والفكر والمال في إقامة المشاريع، وإصلاح المرافق العامة كالطرق والمجالس وغيرها. ومن صوره كذلك كفالة اليتامى، والتصدق على الفقراء والمساكين، ورعاية ذوي الاحتياجات الخاصة.

د- النَّجدة والإغاثة: فمن خصائص الإنسان العماني أنه يتحلى بقيمة نبيلة وهي النجدة والإغاثة، وقد سجل التأريخ صورا مشرقة للإنسان العماني في هذا الشأن، ومن ذلك نجدة الإمام الصلت بن ملك وإغاثته لأهل سقطرة، حين اعتدى عليهم أعداء الإسلام، ونكلوا بهم.

لقد عرف عن العماني بأنه يضحي بنفسه من أجل غيره، فتجده يُقدِم على إنقاذ غريق، أو إطفاء حريق، أو تخليص إنسان من موقف صعب، وتلك مشاهد ظهرت جليا عبر وسائل الإعلام في الأنواء المناخية آنفة الذكر، وهي تتكرر كل يوم في مواقف مختلفة من الحياة.

هـ- التسامح: يتصف الإنسان العماني بشعوره واهتمامه بأخيه الإنسان بغض النظر عن جنسه أو لونه أو معتقده، فهو متعاون سمح طيب المعشر مع جميع الناس، ولا غرابة في ذلك فهو يعيش في مجتمع ما عرف عنه إلا حسن الجوار، وطيب المعاملة، وهذه شهادة يشهد بها كل من عاشر العمانيين داخل الوطن وخارجه، وهي نعمة من الله تعالى لهذا المجتمع الطيب، وشهادة شرف يفتخر بها كل عماني يعيش في ربوع هذا الوطن المعطاء.

وقد أشار اليافعي (٢٠٠٩، ٧٢) إلى أن المصادر أوضحت سماحة التجار والبحارة العرب (ومنهم العمانيون) وفضلهم في نشر حضارتهم الإنسانية، ليس فقط في الأنحاء الأفريقية ... وإنما أيضا في أماكن أخرى وصلوا إليها كالهند والصين. ومما يدلل على سماحة العمانيين، وحبهم للتعايش والتعاون مع الآخرين أنهم حين ذهبوا إلى البلدان الأخرى -بهدف التجارة وكسب الرزق- أقاموا علاقات اجتماعية وروابط مصاهرة مع السكان الأصليين. فلا غرو إذا أن تسترعي سماحة العمانيين -وغيرهم من المسلمين- اهتمام المراقبين الأوروبيين في المجتمعات الأفريقية، إذ يقول أحدهم: "كيفما كانوا، وحيثما ذهبوا ... فإن الدعاة المسلمين أظهروا رفقا وتعاطفا واحتراما للعادات والعصبيات المحلية ... الشيء الذي كان-دون ريب- أحد أسباب نجاحهم، الذي يَحسُن بمبشّرينا ومعلّمينا أن يقلدوه" (اليافعي، ٢٠٠٩، ٨٠).

ونخلص مما تقدم أن للتطوع صورا متعددة يشمل مجالات الحياة المختلفة، وله دوافع متعددة، وينطلق في المجتمع العماني من قيم إيمانية واجتماعية أصيلة راسخة، ينبغي الاهتمام بها، وتربية الأجيال عليها في المراحل العمرية المختلفة، وتوعية الناس بها عبر مؤسسات التعليم والتثقيف، وبرامج التوعية، بما يضمن استمرار العمل التطوعي، وتطوير آلياته وأساليبه، وبذلك تستمر حركة البناء والتطور في المجتمع، ويزداد الشعور بأهمية التعاون بين المواطن والدولة،

فينمو الشعور لدى الفرد بحب الوطن والانتماء إليه، ويحس بمسؤوليته نحو إخوانه في الدين، وإخوانه في الإنسانية.

المراجع:

- البخاري، صحيح البخاري، ج ١٠، المكتبة الشاملة.
- الربيع، بن حبيب، مسند الربيع، ج ١، المكتبة الشاملة.
- القاضي، محمد بن صالح، الأعمال التطوعية في الإسلام. http://saaid.net تاريخ الدخول، ٢٠١١/١٠/٣٠.
- المنتدى التربوي، قصة العمل التطوعي في سلطنة عمان، وزارة التربية والتعليم. httphttp://forum.moe.gov.om تاريخ الدخول، ٢٠١١/١٠/٢٦.
- اليافعي، علي بن سعيد (٢٠٠٩) التجربة العمانية في التسامح، مقالة في كتاب: التسامح: تجربة سلطنة عمان وروسيا الاتحادية، تحرير، بيبلوس كونسالتينغ، موسكو.